المقالة السابعة عشرة
فی معنی قوله سبحانه : ﴿یخرجهم من الظلمات الی النور﴾

و فیه معارج :

المعراج الأوّل
فی تحقیق الآیة

إنّ الله سبحانه لمّا ذکرنا أنّه یحبّ الذین آمنوا و متولی ایمانهم و معینهم فی قبول الهدایة و مکمل قلوبهم بکمال العرفان المعبّر عنه بالایمان، أراد أن یبیّن کیفیة هذا التکمیل و الاستکمال ولمیّة هذا الفعل و الانفعال، فأشار الی أنّ کیفیته بأن یخرجهم من الظلمات الخلقة الی النور الهدایة، حتی اهتدوا و آمنوا، فانّ کلّ واحد من الناس بحسب أصل طینته و هیولانیّته من سنخ الظلمات ـ کالجمسیّة ـ و الطبیعة و الحیوانیة ـ التی مقتضی ذاتها أفعال توجب الطرد و البعد عن رحمة الله الخاصة الموجبة لدخول الجنّة، و إنّما التفاوت بحسب تفاوت الأرواح و القلوب فی الکدورة و الصفاء الفطریتین، ثمّ بحسب العقائد و الأعمال.

و یجوز أن یحمل قوله تعالی : ﴿و إن منکم إلّا واردها کان علی ربّک حتماً مقضیاً﴾ (مریم(۱۹) : ۷۱)علی ما یستوجبه الانسان بحسب ما یقتضیه طینة الجمسانیّة الظلمانیّة.

---

۱ . الکافی، ج۸، ص۱۷۷، ح۱۹۷

و يحتمل أن يأوّل الظلمات بالأوصاف النفسانيّة كالشهوة و الغضب و الوهم قبل أن يسخرها القلب و يستعملها فيما خلقت لأجله، و يستخدمها فى طاعة الله على وجه التعديل و التوسيط، فانّ وجودها لا على وجه المذكور ظلمة و وبال على النفس الآدميّة توجب لها الاستحقاق لعذاب الله بالجحيم و النار و الموت و الحرمان عن نعيم الأبرار، كما يدلّ عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه و جعلنا له نوراً﴾ (الأنعام(۶): ۱۲۲).

فثبت أنّه تعالى أخرجهم ذلک اليوم باصابة رشاشة النور ـ كما ذكر فى الحديث المشهور[۱] ـ من ظلمات الطينة حتى اهتدوا اليوم فآمنوا، و لولا محبّته إيّاهم و تنويره قلوبهم و مزيد العناية و توليته لهم بالنصرة و المعنويّة فضلا منه و رحمة لمّا آمنوا و كانوا من الكافرين، كقوله تعالى: ﴿و لولا فضل الله عليكم و رحمته لكنتم من الخاسرين﴾ (البقرة(۲): ۶۴). و نظائره من الآيات الدالة على مزيد فضل الله لعباده الصالحين.

فما أشدّ سخافة عقل من أنكر مزيد محبّة الله و عنايته للمحبوبين المقرّبين من الأنبياء والمرسلين و الأبدال الواصلين و يرى أنّ التوفيق و الهداية و المحبة من قبله تعالى مساوية النسبة الى أفضل خلق الله و أحبّهم اليه كخاتم المرسلين عليه و آله أفضل صلوات المصلين و أرذل خلقه و أبغضهم لديه ـ كالشيطان اللعين؟! بدون تفاوت ذواتهم فى ابتداء الفطرة بحسب صفاء جوهر القلب و ظلمته و صفائه و كدورته، اللذان هما من مظاهر قهره تعالى و رأفته و آثار مقته و رحمته مرّ كما ذكره.

المعراج الثانى
فى بيان طوائف المؤمنين فى الايمان و كيفية اخراج كلّ طائفة من الظلمة الى النور، و أنّ مراتب الايمان متفاوتة

المؤمنون فيه على ثلاث مراتب لكونهم ثلاث طوائف: عوام المؤمنين و خواصهم، و خواص خواصهم.

فالعوام يخرجهم الله من ظلمات الكفر و الضلالة الى نور الايمان و الهداية كقوله تعالى: ﴿و الذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم﴾ (محمّد(۴۷): ۱۷).

---

۱. «إنّ الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة، ثمّ رشّ عليهم من نوره»، تفسير ابن كثير، ج۲، ص۱۷۸؛ تفسير ابن عربى، ج۱، ص۷۷.

و الخواص يخرجهم من ظلمات الصفات النفسانية و الجسمانيّة الى نور الروحانية الربانيّة لقوله تعالى : ﴿الذين آمنوا و تطمئن قلوبهم بذكر الله﴾(الرعد(١٣) : ٢٨)و معرفته و اطمينان القلب بالذكر و المعرفة لم يكن إلّا بعد تصفيته عن الصفات النفسانية و تحليته بالصفات الروحانية ، و إلّا فمن صفاته الاطمينان بالحياة الدنيا و شهواتها ، كقوله تعالى : ﴿رضوا بالحيوة الدنيا و اطمأنوا بها﴾(يونس(١٠) : ٧) .

فلمّا استولى سلطان المعرفة على نفس المؤمن و قلبه تنورت النفس بنور الذكر و خرجت عن ظلمة صفاتها فتبدلت أخلاقها الذميمة بالحميدة ، فيكون اطمينانها مع العلوم الالهيّة و ذكر الله بدل ما كان مع الدنيا ، فيستحق حينئذ أن يخرجها الله تعالى بخطاب : ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربّك﴾من ظلمات الصفات الغير المرضية الى نور صفة ﴿راضية مرضية فادخلى فى عبادى﴾أى مقام خواص عبادى﴿و ادخلى جنتى﴾(الفجر (٨٩) : ٢٨) أى المخصوصة المشرفة باضافتها الىّ ، فهى خاصة لخواص عبادى .

و خواص الخواص يخرجهم من ظلمات حدوث الخلقة الروحانية بافنائهم عن وجودهم الى نور تجلّى صفة التديم لهم ليبقيهم به ، كقوله تعالى : ﴿إنّهم فتية آمنوا بربّهم و زدناهم هدى* و ربطنا على قلوبهم إذ قاموا﴾(الكهف(١٨) : ١٣) ـ نسبهم الى الفتوّة لـمّا خطروا بأرواحهم فى طلب الحقّ و آمنوا بالله و كفروا بطاغوت دقيانوس .

فلمّا تقربوا الى الله تعالى بقدم الفتوّة ، تقرب اليهم بمزيد العناية ، قال : ﴿و زدناهم هدى﴾ تحقيقاً لقوله ﷺ : «من قرّبنى شبراً قرّبته ذراعاً» .

فلمّا تنوّرت أنفسهم بأنوار أرواحهم اطمأنّت الى ذكر الله و آنست به ، و استوحشت عن صحبة أهل الدنيا و ما فيها و أحبوا الخلوة مع الله ، فقال أكبرهم و شيخهم : ﴿إذا اعزلتموهم و مايعبدون إلّا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربّكم من رحمته﴾(الكهف(١٨) : ١٦) فأووا الى الغار ليخلوا مع الله و يطلبوه .

فاذا قاموا عن وجودهم و بذلوا جهدهم فى طلبه و مشوا اليه استقبلهم بجوده هرولة ، فبدّل أوصافهم بألطافه كما قال : ﴿و ربطنا على قلوبهم﴾أى أفنيناهم عنهم بنا بنشر رحمتنا عليهم ، و «النشر» هو الاحياء ، فأفناهم عنهم و أبقاهم به ، و هو الولاية التى تكرّم الله تعالى به خواص عباده ، إذ يخرجهم من ظلمات وجودهم الى نور جوده بعد تربيتهم بالرفق ، و أنامتهم نومة العروس بعزل الحواس لتصفية القلب و الفراغ بالكليّة الى الحق عن الدنيا لئلّا

تتأذّى نفوسهم بنصب الرياضة و تعب المجاهدة ـ ﴿و نقلّبهم ذات اليمين و ذات الشمال﴾ أى : من صفات أصحاب الشمال الى صفات أصحاب اليمين ، ـ ﴿و كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ لايزاحمهم بدواعى الحيوانيّة حتى تمّت مدة تربيتهم فى تبديل أوصاف البشرية بأخلاق الربوبية .

و من علامة هذا المقام ـ الذى يصل اليه خلّص عباد الله الكرام ـ ما أظهره الله عليهم للاحترام هيبة من آثار صفات جلاله كما قال سبحانه : ﴿لو اطّلعت عليهم لولّيت منهم فراراً و لملئت منهم رعبا﴾(الكهف(١٨) : ١٨) ، و عداوة علماء الدنيا لأهل الله و العرفاء و غيظهم إنّما تنشأ من غاية ما وجدوا من الهيبة و الجلالة فيهم ، و لهذا ملؤوا منهم غيظاً كما ملؤوا رعباً .

المعراج الثالث
فى اتقان القول بأنّ الله تعالى هو المبدأ الفعّال فى اخراج النفوس الانسانيّة من ظلمات الجهل و الضلال الى نور المعَرفة و الكمال ، و دفع شبهة المنكرين و الجهّال

أجمع المفسّرون على أنّ المراد هاهنا من الظلمات و النور هما الكفر و الايمان و مايجرى مجراهما من اللوازم و الملزومات ، فتكون الآية صريحة فى أنّ الله تعالى هو الذى أخرج الانسان من مرتبة الكفر ـ الذى هو ضرب من الجهل ـ و أدخله الى مرتبة الايمان ـ الذى هو ضرب من العلم ـ .

و البرهان العقلى عليه هو أنّ الانسان فى مبدأ الفطرة خالية عن العلوم كلّها ، ثمّ قد يصير مؤمناً بالحقائق الربانيّة ، عالماً بالمعالم الالهيّة ، و لاشک أنّ كلّ مايخرج من القوة الى الفعل بحسب الكمال العلمى فلابدّ له من سبب يخرجه منها اليه ، و ذلک السبب إمّا أن يكون كاملا فى ذاته ، عالماً بالفعل من غير قصور ، أم لايكون كذلک ، بل كان عالماً كاملا بعد ما لم يكن .

فان كان الأوّل : فهو إمّا واجب أو ممكن ، فان كان واجباً فهو المطلوب و إن كان ممكناً فسببيّته لتكميل هذا الانسان إمّا بحسب حقيقة ذاته الممكنة ، أو من جهة افاضة الواجب تعالى نور العلم و الكمال عليه . و الأوّل محال ؛ لأنّ الممكن بحسب ذاته الامكانيّة عدم محض و قوة صرفة ، فاستحال أن يصير سبباً لوجود أو فعلية ، فتعيّن الثانى و هو مطلوبنا .

ـ و إن لم يكن كاملا كذلك ينقل الكلام الى سببه المخرج إيّاه من النقص الى الكمال ومن القوة الى الفعل، فـامّا أن تذهب السلسلة الى غير النهاية، أو تدور، أو تـنـتـهـى الـى الواجب تعالى. و الشقّان باطلان، فتعيّن الثالث و هو الحق.

فثبت أنّ الله هو الذى أفاض نور الايمان على النفوس الساذجة الانسانية عنه بحسب الفطرة الأصليّة، و أخرجه عن ظلمات التعلّقات الدنياوية الى نور القرب المعنوى الربانى.

و أمّا ذكره جمع من معتزلة المتكلمين من وجهين:

أحدهما: أنّ الاخراج من الظلمات الى النور عبارة عن نصب الدلايل و ارسال الانبياء و انزال الكتب و الحث و الترغيب فى الايمان بأبلغ الوجوه، و التحذير عن الكفر بأقصى الوجوه، و قد نسب الله الاضلال الى الصنم فى قوله: ﴿ربّ إنّهن أضللن كثيراً من الناس﴾ (ابراهيم(١٤): ٣٦) لأجل أنّ للأصنام سببيّة مّا بوجه، فبأن يضاف الاخراج من الظلمات اليه تعالى كان اولى.

و الوجه الثانى: أن يحمل «الاخراج من الظلمات الى النور» على أنّه تعالى يعدل بهم من النار الى الجنة، و هذا أدخل فى الحقيقة؛ لأنّ مايقع من ذلك فى الاخرة يكون من فعله تعالى ـ فكأنّه فعله، فهو مفسوخ الضبط، مقدوح الحكم، و ليت شعرى بعد أن يكون الاخراج عبارة عمّا ذكروه. أفلا يكون بين الناس تفاوت و اختلاف فى المفهوم و القرائح؟ حتى تفطن بعضهم للدلايل و تلقّوها بالقبول، و أوقعت معانيها فى أذهانهم و قرائحم بأبلغ وجه و آكده، بخلاف البعض الاخر حيث تبلدت أذهانهم و تعصّت عن قبولها، كما قال سبحانه فيهم: ﴿ختم الله على قلوبهم و على سمعهم و على أبصارهم غشاوة﴾ (البقرة (٢): ٧) و كذا قوله: ﴿سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ (البقرة(٢): ٦)، و قوله مخاطباً للرسول صلى الله عليه و آله: ﴿إنّك لاتهدى من أحببت﴾ (القصص(٢٨): ٥٦).

فهذا التفاوت فى الفهم و الذكاء بين النفوس على هذه الغاية ـ التى هى أزيد ممّا بين الأرض و السماء، حيث يكون منهم البليد الذى لاأفلح أبداً فى فكره، و منهم شديد الحدس قوى الذكاء الى حيث تبلغ نفساً قدسيّة تعرف الأشياء كما هى فى زمان قليل العدد، أيكون حاصلا بمجرّد التعلّم و الكسب من غير تفاوت فى أصل فطرة الجواهر؟ أم بفيض الهى قدرى يجعل النفوس مختلفة الذوات صفاءاً و كدورة، متفاوتة القلوب لطافة و كثافة، ليناً و قساوة؟

لست أشك فى أنّ أحداً من العقلاء لاينكر هذا التفاوت الفطرى ضميراً و اعتقاداً. و إن

عاند لساناً و قولا ، فاذا بطل أن يكـون ذلک بمجرّد الكسب من غير مدخل لعناية الله فـی حق البعـض دون الاخر فقد ثبـت أنّه تعالی هو الذی خلق الظلمات و النور ، و الـجـنـة و النار ، و خلق لكلّ منهما أهلا كما قـال : ﴿هو الذی خلقكم فمنكم كافر و منكم مؤمـن﴾ (التغابن(۶۴) : ۲) .

فاذا تحقّق هذا المقام بما ذكـرناه من الكلام فلنشتغل بحل ما عقـدوه ، و الجواب عما ذكروه أمّا عن الأوّل فمن وجهين :

أحدهما : أنّ هذه الاضافة حقيقة فی الفعل و مجاز فی الحث و الـترغيب ، و الأصـل حمل اللفظ على الحقيقـة ، عـلـى أنّ جواز اطلاق اللفظ فی معنى لايقتضی ثـبـوت ذلک المعنى ، فلايصح التعويل عليه فی المقاصد الاعتـقـاديّة ، و قد اشتهر بين المحصلين ان الحقايق غير مقتنصة من الاطلاقات اللغوية أو العرفية .

و ثانيهما : أنّ هذه الترغيبات إن كانت مـؤثرة فی ترجيح الداعية صار الراجح و اجباً و المرجوح ممتنعـاً ، و حينئذ يبطل قـولكم ، و إن لم يكن أثر فی الترجيح لم يصح تسميتهـا بالاخراج .

و أمّا عن الثانی فمن وجهين ايضاً :

الأوّل : قال الـواقدی : «كلّ ما كان فی القـرآن من الظلمات و النـور فـانّـه أراد به الكفـر والايمان ، غير قوله تعالی فی سورة الانعام : ﴿و جعل الظلمات و النور﴾ (الأنعام(۶) : ۱) ، فانّه يعنی به الليل و النهار . قال : و جعل «الكفر» ظلمة ؛ لأنّه كالظلمة فی المنع من الادراک و جعل الايمان نورا ؛ لأنّه كالسبب فی حصول الادراک .[1]

و الثانـی : أنّ العدول بالمؤمن من النار الى الجنـة أمـر واجب على الله تعالى عنـدكـم فلايجوز حمل اللفظ عليه .

المعراج الرابع
فی ازاحة وهم من يحض الآية بمن كان كافراً حيناً من الدهر ثمّ أسلم

إنّ ظاهر لفـظ ﴿يخرجهم من الظلمات الـى الـنـور﴾ اقتضى أنّهم كانـوا فی الكفر ، ثـمّ أخرجهم الله من ذلک الكفر الذی عليه فی حصة من الزمان الى الايمان ، قال جماعة من

۱ . تفسير الرازی ، ج۷ ، ص۲۰ ؛ تفسير الثعلبی ، ج۲ ، ص۲۳۷

المفسرين : «إنّ الاية مختصة بمن كانوا من الكافرين ثمّ قبلوا دعوة الاسلام» و هم ذكروا فی سبب النزول روايات :

احداها : قال مجاهد : «هذه الاية نـزلت فی قـوم آمنوا بعيسی عليه السلام و قوم كفـروا به ، فلمّا بعث الله محمداً صلی الله عليه و آله آمن به من كفر بعيسی عليه السلام ، و كفر به من آمن بعيسی عليه السلام» .

و ثانيتهـا : أنّ الاية نزلت فی قوم آمنوا بعيسـی عليه السلام على طريقه النصـارى ، ثمّ آمنوا بعده بمحمد صلی الله عليه و آله فكان ايمانهم بعيسی عليه السلام حين آمنوا به ظلماً و كفراً ؛ لأنّ القول بالاتحاد كفر ، و الله تعالى أخرجهم من تلك الظلمات الى نور الاسلام .

و ثالثتها : أنّ الاية نزلت فی كلّ كافر أسلم بمحمد صلی الله عليه و آله . و هذا التخصيص غير لازم ، بل الأولى أن يحمل اللفظ على كـلّ من آمن بالله و بمحمد صلی الله عليه و آله و بماجاء به ـ سـواء كان ذلك الايمان بعد الكفر بـعـديـة زمانية أو لـم يكـن ـ و تـقـريـره حسبما أشـرنا اليـه أنّه لا يبـعـد أن يقال : «يخرجهم من النور الى الظلمات» و إن لم يكونوا فيها ألبتة ، و يدل على هذا الجواز النقل و العقل :

أمّا النقل ؛ فيدلّ عليه القرآن و الخبر و العرف .

أمّا القرآن ؛ فقوله تعالى : ﴿و كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منهـا﴾ (آل عمران(٣) : ١٠٣) و معلوم أنّهم لم يكونوا قطّ فی النار ، و قوله : ﴿لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزی﴾ (يونس(١٠) : ٩٦) و ما كان نزل بهم عذاب ألبتّة ، و قال فی قصة يوسف عليه السلام : ﴿تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ (يوسف(١٢) : ٣٧) و لم يكن فيها قطّ ، و قال : ﴿و منهم من يرد الى أرذل العمر﴾ (النحل(١٦) : ٧٠) ، و ما كانوا فيه قطّ .

و أمّا الخبر : فروی أنّه صلی الله عليه و آله سمع انساناً قال : «أشهد أن لا إله إلّا الله» فقال : «على الفطرة» فلمّا قال : «أشهد أنّ محمداً رسول الله» فقال : خرج من النار» . و معلومه أنّه لم يكن فيها .

و روی ايضاً أنّه صلی الله عليه و آله أقبل أصحابه فقال : «تتهافتون فی النار تهافت الجراد ، و هاأنا آخذ بحجزكم» . و معلوم أنّهم ما كانوا متهافتين فی النار .

و أمّا العرف ؛ فهو أنّ الأب أنفق كلّ ماله ، فالابن قد يقول له : «قد أخرجتنی من مالک» ای : لم تجعل لی فيه شيئاً ، لا أنّه كان فيه فأخرجه منه .

و أمّا العقل فالتحقيق فيه كما مران الانسان و ان لم يكن فی النار ظاهراً و لم يكن كافراً قطّ إلّا أنّه كانت نفسه فی أوّل الفطرة ناقصة فی معنى الانسانية ، خالية عن الكمالات العلميّة

و العمليّة ، و مع ذلک مشارک للحيوانات فی الأغراض الشهوية و الغضبية ، بل أنزل رتبة و أضل سبيلا منها فی الدواعی النفسانية ، و الميل الی الدنيا و الاخلاد الی الأرض ، فان بقی علی هذه الحالة التی هی بعينها سبب دخول الجحيم و غضب الجبار ، أو نفسها ـ کما هو عند بعض ـ فکان علی شفير جهنم ، فاذا تنوّرت ذاته بالايمان اليقينی و المعارف اليمانية و العمل بمقتضاها فقد حصل له ما هو سبب دخول الجنان و مجاورة الرحمن أو عينها ـ کما هو عندهم ـ .

فمعنی هذه الآية و غيرها من النقول المذکورة هو ماذکرنا ، فانّ العبد لوخلیّ ساعة من توفيق الله تعالی لوقع فی الظلمات ممّا توجبه الشهوات و غيرها ، فصار امداد لطفه و افاضة نوره آناً فآناً سبباً لدفع تلک الظلمات عنه ، و بين الدفع و بين الرفع مشابهة ، فبهذا الطريق يجوز استعمال الاخراج و الابعاد فی معنی الدفع و الرفع .